

الدرس الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى بعد أن ذكر كفالة أبي طالب للنبي ﷺ :
[وخرج به عمه إلى الشام في تجارة وهو ابن اثني عشرة سنة ، وذلك من تمام لطفه به ، لعدم من يقوم به إذا تركه بمكة ، فرأى هو وأصحابه ممن خرج معه إلى الشام من الآيات فيه ﷺ ما زاد عمه في الوصاة به والحرص عليه ، كما رواه الترمذي في جامعه بإسناد رجاله كلهم ثقات ، من تظليل الغمامة له ، وميل الشجرة بظلها عليه ، وتبشير بحيرى الراهب به ، وأمره لعمه بالرجوع به لئلا تراه اليهود فيرمونه سوءاً ، والحديث له أصل محفوظ وفيه زيادات أخر . ثم خرج ثانياً إلى الشام في تجارة لخديجة بنت خويلد مع غلامها ميسرة على سبيل القراض ، فرأى ميسرة ما بهره من شأنه ، فرجع فأخبر سيده بما رأى ، فرغبت إليه أن يتزوجها ، لما رجعت في ذلك من الخير الذي جمعه الله لها ، وفوق ما يخطر ببال بشر ، فتزوجها رسول الله ﷺ وله خمس وعشرون سنة] .

ذكر هنا المصنف رحمه الله تعالى رحلتي النبي عليه الصلاة والسلام إلى الشام :

الأولى : وهو ابن اثني عشرة سنة .

والثانية : وهو ابن خمس وعشرين سنة .

أي بين الرحلتين ثلاث عشرة سنة . وكان ﷺ في رحلته الأولى مرافقاً لعمه أبي طالب ، وكما أشار ابن كثير رحمه الله أخذه معه إلى الشام في رحلته لأنه ليس هناك من يقوم عليه لو تركه في مكة ، فكان أخذه له من تمام لطفه به ورعايته له وعنايته به صلوات الله وسلامه عليه .
قال رحمه الله : ((وخرج به عمه إلى الشام في تجارة)) أي تجارة لعمه ، فكان في هذه الرحلة صغيراً ((ابن اثني عشرة سنة)) مرافقاً لعمه أبي طالب ((وذلك من تمام لطفه به لعدم من يقوم إذا تركه بمكة)) .

قال : ((فرأى -أي عمه- هو وأصحابه ممن خرج معه إلى الشام من الآيات)) ؛ يعني في ذلك الوقت المبكر من حياته عليه الصلاة والسلام رأوا من الآيات فيه ﷺ ((ما زاد عمه في الوصاة به والحرص عليه)) .

من هذه الآيات ما أشار إليه ابن كثير رحمه الله مما ((رواه الترمذي في جامعه)) وقوى إسناده ابن كثير قال : ((رجاله كلهم ثقات)) ، والترمذي عندما رواه في جامعه قال : حديث حسن غريب ، والحافظ ابن حجر رحمه الله قال : " وإسناده قوي " ، وصححه العلامة الألباني رحمه الله تعالى .

قال : ((من تظليل الغمامة له)) ؛ أي في حر الشمس وشدتها تظلل الغمامة في طريقه ﷺ .

((وميل الشجرة بظلها عليه)) ؛ ومن ذلك أنه جاء مرة وهم جلوس في ظل الشجرة فما بقي له مكان فجلس فمال الظل عليه صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((وتبشير بحيرى الراهب به)) ؛ أي أنه ذكر لعمه وللمرافقين معه ما يراه ويلمحه فيه من أمارات النبوة وعلاماتها ، وأوصى عمه به ، وبناءً على هذه الوصية فإن عمه أعاده إلى مكة ؛ لأن الراهب ذكر لعمه أنه يخشى عليه من اليهود أن يتعرضوا له بأذى .

قال : ((وأمره لعمه بالرجوع به لئلا تراه اليهود فيرمونه سوءاً)) ؛ وجاء أن عمه بعثه مع بعض غلمانهم إلى مكة وواصل بقية الرحلة بدونه خوفاً عليه وشفقة عليه .

هذه هي الرحلة الأولى للشام والتي رحلها نبينا عليه الصلاة والسلام وعمره إذ ذاك اثنا عشرة سنة وكان مرافقاً لعمه أبي طالب . ثم ذكر المؤلف رحمه الله تعالى رحلة النبي عليه الصلاة والسلام الثانية إلى الشام وكان عمره في ذلك الوقت خمس وعشرين سنة ، وهذه الرحلة خرجها عليه الصلاة والسلام إلى الشام متاجراً بمال خديجة .

قال : ((ثم خرج ثانياً إلى الشام في تجارة لخديجة بنت خويلد مع غلامها ميسرة على سبيل القراض)) القراض : يكون منها المال ومنه هو العمل والمتاجرة في المال والمراحة به ؛ على أن يكون له قدرٌ من الربح ، ويسمى أيضاً المضاربة . وهذا الأمر وقد كان موجوداً في الجاهلية جاء بإقراره الإسلام ، وفي كتب الأحكام باب المضاربة وهي القراض ؛ بحيث يكون

من أحد المتضاربين مال ومن الآخر المتاجرة والعمل وتحريك هذا المال على نسبة معلومة من الريح كالربع مثلاً أو الثلث ونحو ذلك .

قال: ((فرأى ميسرة ما بهره من شأنه)) ؛ أي من شأن النبي عليه الصلاة والسلام . فميسرة سافر مع النبي عليه الصلاة والسلام ورأى عجائب في الأخلاق ، في المعاملة ، في الكرم ، في سخاء النفس ، في الآيات الباهرات ، حتى أنه قيل : إنما سُمي السفر سفراً لأنه يُسفر عن معادن الرجال وأخلاقهم ، ولهذا جاء في قصة الرجل الذي أثنى على رجل عند عمر رضي الله عنه قال: أسافرت معه ؟ .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في كتابه الإصابة أنه لم يقف على رواية تفيد ببقاء ميسرة إلى مبعث النبي عليه الصلاة والسلام ومن ثمَّ إيمانه به صلوات الله وسلامه عليه نبياً ورسولاً ، قال : " ولم أقف على رواية صريحة بأن ميسرة بقي إلى المبعث " .

((فرجع فأخبر سيده - أي خديجة - بما رأى ، فرغبت إليه أن يتزوجها)) أي عرضت عليه الزواج عن طريق أحد قرابتها ؛ قيل: عمها ، وقيل غير ذلك .

((لما رجعت في ذلك من الخير الذي جمعه الله لها ، وفوق ما يخطر ببال بشر ، فتزوجها رسول الله ﷺ وله خمس وعشرون سنة)) ؛ وكان لها في ذلك الوقت أربعون سنة ، وكان هذا زواجه الأول . وبقي إلى أن بلغ الخمسين صلوات الله وسلامه عليه ولم يتزوج على هذه المرأة التي تكبره بخمس عشرة سنة ، وبعد وفاتها - وكانت في رمضان من السنة العاشرة للبعثة - تزوج عليه الصلاة والسلام من سودة في شوال ، يعني بعد وفاة خديجة بقرابة الشهر ، ثم فيما بعد تزوج عائشة رضي الله عنها وعن الصحابة أجمعين .

وكان لخديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها خصائص :

- فمن خصائصها : أنها أم ولد النبي ﷺ ؛ فكل ولده منها إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية .

- ومن خصائصها : أن جبريل جاء يحمل إليها السلام والبشارة أيضاً بالجنة .

- ومن خصائصها : أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يتزوج عليها غيرها إلى أن ماتت .

قال المصنف رحمه الله :

[وكان الله سبحانه قد صانه وحماه من صغره ، وطهره من دنس الجاهلية ومن كل عيب ، ومنحه كل خلق جميل حتى لم يكن يُعرف بين قومه إلا بالأمين ، لما شاهدوا من طهارته وصدق حديثه وأمانته] .

ذكر هنا الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى النشأة الصالحة المباركة العظيمة التي نشأ عليها ﷺ منذ صغره ؛ فقد نشأ نشأة صدقٍ ووفاءٍ وأمانةٍ وخلقٍ وكرمٍ ونفسٍ وطيبٍ معاملَةٍ ، وكان مشهوداً له بذلك بين قومه ومشهوراً بذلك ، كان يُعرف بهذه الأخلاق الفاضلة وإذا جاء يقولون : جاء الأمين جاء الصادق ؛ فيذكر ذلك ابن كثير يقول : ((وكان الله سبحانه قد صانه وحماه من صغره ، وطهره من دنس الجاهلية ومن كل عيب)) ؛ فنشأ وقد حماه الله ﷻ من ذلك كله .

وجاء في قصة حادثة شق الصدر عندما كان عليه الصلاة والسلام صغيراً أن جبريل أخرج من قلبه علقه ورمها وقال : ((هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ)) . فهذا فيه حماية النبي عليه الصلاة والسلام وسلامة قلبه وطهارة نفسه من أول الأمر حساً ومعنى . حماه الله ﷻ ووقاه ((ومنحه كل خلق جميل ، حتى لم يكن يُعرف بين قومه إلا بالأمين ، لما شاهدوا من طهارته وصدق حديثه وأمانته)) صلوات الله وسلامه عليه .

والإمام أحمد رحمه الله نُقل عنه أنه قال : " من زعم أن محمداً ﷺ كان على شيء من دين قومه فقد أعظم الفرية أو قال : فهو كاذب " . فالنبي عليه الصلاة والسلام نشأ منذ صغره نشأة صلاح وتقى ، برأه الله من كل من منكرات الجاهلية وحماه منها ؛ فحماه من عبادة الأصنام ، وحماه من رجز الجاهلية ، وحماه من المعاملات المحرمة والفواحش ، وحماه من الأخلاق الذميمة والصفات المشينة . وليس المراد بقول الله ﷻ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ [الضحى: ٧] أي على دين قومه من الشرك والكفر والجاهلية الجهلاء - حاشاه عليه الصلاة والسلام وحماه الله ﷻ من ذلك ووقاه - وإنما المراد بالضلال هنا : أي عن تفاصيل الشرائع وتفاصيل الأحكام وتفاصيل أمور الإيمان كما يوضح ذلك قول الله ﷻ في الآية الأخيرة من سورة الشورى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

[الشورى: ٥٢] أي تفاصيل الإيمان وتفاصيل الشرائع لم يكن عليه الصلاة والسلام يعلمها حتى نزل عليه الوحي فعلمه الله ﷻ ما لم يكن يعلم ، وكان فضل الله ﷻ عليه عظيماً . أما في أول الأمر وقبل المبعث ومنذ النشأة كان عليه الصلاة والسلام على الفطرة ، وكان قد بُعِثَ إليه أعمال الجاهلية ومنكراتهم وأخلاقهم السيئة والفواحش والرذائل والقبائح ، هذه كلها نزهه الله ﷻ وطهره منها ؛ فنشأ نشأة مباركة نشأة صالحة .

قال رحمه الله :

[حتى إنه لما بنت قريش الكعبة في سنة خمس وثلاثين من عمره فوصلوا إلى موضع الحجر الأسود اشتجروا فيمن يضع الحجر موضعه ، فقالت كل قبيلة : نحن نضعها ، ثم اتفقوا على أن يضعه أول داخل عليهم ، فكان رسول الله ﷺ فقالوا : جاء الأمين ، فرضوا به ، فأمر بثوب فوضع الحجر في وسطه ، وأمر كل قبيلة أن ترفع بجانب من جوانب الثوب ، ثم أخذ الحجر فوضعه موضعه] .

ثم ذكر رحمه الله قصة بناء قريش للبيت ، وذكرها هنا شاهداً للأخلاق الفاضلة والآداب الرفيعة التي نشأ عليها صلوات الله وسلامه عليه واشتهر بها بين قومه ، وحادثة بناء قريش للكعبة كانت في السنة الخامسة والثلاثين من عمره عليه الصلاة والسلام كما أشار إلى ذلك الحافظ ابن كثير رحمه الله .

وسبب إعادة البناء : أن سيلاً عارماً شديداً دخل إلى البيت وصدع بنيان الكعبة ؛ فتشاوروا في هدم البيت وإعادة بناءه بشكل قوي ومتقن ، ثم إنهم في تشاورهم في ذلك كانوا يخافون أن يصيبهم ضرر إذا هدموا البيت من أجل إعادة بناءه ، فالبيت كان له حرمة عندهم ومكانة ؛ فقال أحدهم : هل أنتم تهدمونونه على وجه الإفساد أو على وجه الإصلاح ؟! قالوا: على وجه الإصلاح ، قال: إن الله لا يهلك المصلحين . فإذا كان هدمكم للبيت ليس على وجه الإفساد والتخريب ؛ وإنما على وجه العمارة والبناء والتشييد لبيت الله فهذا إصلاح والله لا يهلك المصلحين !! ومع ذلك امتنعوا ، فتقدم هو وبدأ يهدم من البيت حتى يصلح ، فبقوا يوماً وليلة ينتظرون ماذا يحصل له ، فلما مر يوم وليلة وهو مستمر في عمله عملوا معه على هدم البنيان المتصدع من أجل إعادة بناءه مشيداً على حال متقنة .

ثم لما وصلوا إلى وضع الحجر الأسود - وهم يدركون أيضاً مكانة الحجر الأسود وقيمتة ومنزلته - اختلفوا اختلافاً شديداً ، فبلغ الأمر مبلغاً خطيراً حتى أنه أوشكت أن تراق الدماء وأن تصبح مهلكة حول البيت بسبب من الذي يتولى رفع الحجر الأسود ووضعه في مكانه ، وكل قبيلة ترى أنها هي الأجدر والأولى بذلك ، ولما اشتد الأمر وكادت أن تقوم المقتلة على ذلك أشار عليهم رجل - وكان أكبرهم سنّاً - أن يحكّموا أول داخل ويكون حكمه الفصل وأن يرضوا بحكمه وأن ينتهي النزاع ، الشيء الذي يقوله يتمم بدون نزاع وبدون مخالفة ؛ فلما اتفقوا على ذلك دخل النبي عليه الصلاة والسلام ؛ وفرحوا جميعاً وأخذوا يقولون - كما قال الحافظ ابن كثير-: " جاء الأمين جاء الأمين " أي أنه منذ نشأته ﷺ معروف بالأمانة وبالصدق .

وهذا يؤخذ منه فائدة في باب الدعوة ؛ أن الداعية حتى يكون لدعوته الأثر والوقع وكلماته يكون لها القبول ينبغي أن يكون له مسبقاً صدق في نفوس الناس من حيث الأخلاق من حيث المعاملات ، لا يكون رجل منكر فيهم لا يعرفونه بأخلاق ولا يعرفونه بآداب ولا يعرفونه بمكارم ثم يبدأهم بدعوة دون أن يكون هناك معرفة منهم به ! فهذا مما يُضعف أثر الدعوة ، بينما النبي عليه الصلاة والسلام منذ نعومته وهو يغشى الناس ومجالسهم ويقوم بمصالحه وأعماله ويعرفونه بالأخلاق ، بالصدق ، بالأمانة ، بالوفاء ، بالنزاهة ، بالطهارة إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة التي عُرف بها واشتهر بها عليه الصلاة والسلام منذ صغره . وهذا الآن شاهد واضح بيّن على هذه النشأة المباركة التي نشأ عليها صلوات الله وسلامه عليه ، فالخلاف محتدم عند الكعبة ، وكاد الأمر أن يتأزم وتراق الدماء ويدخل عليهم فيفرحون فرحاً شديداً ويقولون: " جاء الأمين جاء الأمين " معلنين بذلك أنهم يرضون بما يقوله وما يحكم به صلوات الله وسلامه عليه .

((فأمر بثوب)) فجاء بالثوب فوضع على الأرض ((فوضع الحجر في وسطه ، وأمر كل قبيلة أن ترفع بجانب من جوانب الثوب)) ؛ لأنه أصبح الحجر على ثوب وأصبح من الممكن أن يشارك في رفع الحجر من كل قبيلة من يمثلها ؛ لا أن كل أفراد القبيلة يحملون الثوب ، فلما رفعوه على المحاذاة أخذ عليه الصلاة والسلام الحجر بيده فوضعه موضعه . وانتهى الخلاف على أتم ما يكون ، وشارك الجميع في رفع الحجر إلى مكانه ، وحُسم الأمر .

وهذه أيضاً مثل ما ذكر أهل العلم هي بمثابة التوطئة لنبوته عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه سيأتي بأمر مخالف تماماً لما عليه الناس ولما نشئوا عليه ولما نشأ عليه الآباء والأجداد ، وعندما يأتي بأمر مخالف تماماً لعقائدهم لأديانهم من الصعوبة بمكان أن يتحول الناس ؛ فجاءت أمور ومقدمات وتمهيدات مسبقة بين يدي هذا الحدث العظيم مبعث النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وكان منها هذه الحادثة العظيمة التي هي بناء البيت والخلاف الشديد الذي كان حول رفع الحجر الأسود ووضعه موضعه من البيت .

وقصة بناء البيت هذه قصة صحيحة بالشواهد رواها الإمام أحمد في المسند والحاكم من حديث مجاهد عن موله، ورواها الطيالسي والحاكم والبيهقي في الدلائل من حديث علي ، وهي قصة ثابتة من غير طريق في دواوين السنة وكتب الحديث المشهورة .

قال رحمه الله :

[فصل (مبعثه ﷺ) : ولما أراد الله تعالى رحمة العباد وكرامته بإرساله إلى العالمين حبيب إليه الخلاء ، فكان يتحنث بغار حراء ، كما كان يصنع ذلك متعبداً ذلك الزمان ، كما قال أبو طالب في قصيدته المشهورة اللامية : وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه وراق لبرٍّ في حراء ونازل

ف فجاء الحق وهو بغار حراء في رمضان ، وله من العمر أربعون سنة ، فجاءه الملك فقال له: اقرأ ، قال: لست بقارئ ، فغته حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله فقال له : اقرأ ، قال : لست بقارئ ثلاثاً ، ثم قال : "اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم " . فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره ، فأخبر بذلك خديجة وقال : "قد خشيت على عقلي" ، فثبتته وقالت : " أبشر كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث وتحمل الكل ، وتعين على نوائب الدهر " في أوصاف آخر جميلة عدّتها من أخلاقه عليه تصديقاً منها له وتثبيتاً وإعانة على الحق ، فهي أول صدّيق له رضي الله عنها وأكرمها]

قال : ((فصل مبعثه ﷺ)) ذكر هنا مبعث النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد بُعث ﷺ وله من العمر أربعون سنة ، وذكر الحافظ رحمه الله تعالى قصة خديجة زوجها رضي الله عنها وتبنيتهما له من أول الأمر ، وكان المبعث بعد الزواج بخمس عشرة سنة ، فكان بينهم عشرة عظمة وحياة زوجية كريمة ومحبة ، فكان عليه الصلاة والسلام لما حصل المبعث وجاءه الملك جاء إلى البيت يرجف خائفاً من هذا الأمر الذي فجأه وهو يتحنث في غار حراء ، فكانت هذه المرأة الصالحة المرأة الكريمة العاقلة الرزينة تثبته صلوات الله وسلامه عليه بالكلام العظيم الآتي مما نقل ابن كثير رحمه الله تعالى بعضه ، وهذا يبين لنا مكانة الزوجة الصالحة في مناصرة الزوج وتهدئته وتسميح خاطره والتعاون معه ؛ مما له الأثر العظيم في أعماله ومناشطه الدعوية وأعماله الخيرية .

قال : ((ولما أراد الله تعالى رحمة العباد وكرامته بإرساله إلى العالمين)) ؛ لأن الوقت الذي بعث فيه عليه الصلاة والسلام هو وقت كما جاء في الحديث نظر فيه الله ﷻ إلى أهل الأرض فمقتهم أجمعين عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب يعني قلة قليلة جداً من أهل الكتاب منهم ورقة ابن نوفل كما سيأتي ذكره ، وإلا فجميع الأرض طبقت بالظلام وخيمنت بالجاهلية والكفر والآثام ، وأصبح لا يوجد على التوحيد وعبادة الله بالإخلاص إلا قلة قليلة جداً ، وبقية من على الأرض مقتهم رب العالمين أجمعين .

فلما أراد الله ﷻ الرحمة بالعباد ، وأراد الكرامة للرسول محمد عليه الصلاة والسلام ((حَبَّبَ إليه الخلاء)) يعني أن يخلو بنفسه وينفرد بعيداً عن الناس .

((فكان يتحنث بغار حراء)) ؛ غار حراء : جبل في مكة فيه غار كان يأوي إليه النبي عليه الصلاة والسلام وينقطع فيه بعيداً عن الناس ليتحنث أي يتعبد بالإخلاص لله والتوحيد له وحسن المناجاة إليه والانقطاع لذكره وحده ﷻ بعيداً عن جاهلية أهل الجاهلية الجهلاء وشركهم وضلالاتهم ((كما كان يصنع ذلك متعبداً ذلك الزمان)) ومنهم ورقة ابن نوفل ابن عم زوجته خديجة .

((كما قال أبو طالب في قصيدته المشهورة اللامية :

وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه وراقٍ ليرقى في حراء ونازل))

يقصد النبي عليه الصلاة والسلام أنه يرقى حراء وينزل يتحنث ويتعبد لله ﷻ في ذلك المكان .

بقي متحنثاً متعبداً في غار حراء وقتاً يتردد إلى ذلك الغار ((ففجأه الحق وهو بغار حراء في رمضان)) وكان ذلك يوم اثنين ؛ كما يدل لذلك حديث أبي قتادة الذي مر معنا في صحيح مسلم: ((وَيَوْمَ بُعِثْتُ أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ)) .

((وله من العمر أربعون سنة)) ؛ وهذا هو سن الأشدَّ ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف: ١٥] .

((فجاءه الملك - أي جبريل ﷺ - فقال له: أقرأ ، قال: لست بقارئ))؛ لأنه عليه الصلاة والسلام نشأ نشأة لم يتعلم القراءة والكتابة .

((فغته حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله)) يعني الملك ضمّه وشدّه إليه حتى بلغه الجهد وبلغ به الشدة مبلغاً ثم أرسله .

((فقال له : اقرأ ، قال : لست بقارئ ثلاثاً)) ؛ يعني ثلاث مرات يعيد معه هذه الطريقة يضمه ثم يرسله وهو عليه الصلاة والسلام في الغار ، بعد المرة الثالثة قال : ((﴿ اقْرَأْ

بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١-٥])) وكان هذا أول ما نزل على النبي عليه الصلاة

والسلام ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ؛ وفيه أن دين الله ﷻ علم وتعلم وقراءة وتفقه في دين الله ؛ مع الاستعانة بالله وطلب العون منه والالتجاء إليه ، فالذي يعلم هو الله ﷻ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿ فالعبد مطلوب منه في هذا المقام التفقه والتعلم وطلب العون والمدد من الله ﷻ .

((فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره)) ؛ أطرافه عليه الصلاة والسلام ترجف من هذا الأمر .

((فأخبر بذلك خديجة)) ؛ جاء إلى البيت وأخبر المرأة الرزينة العاقلة الرصينة الزوجة الصالحة بالذي حدث له .

((وقال : قد خشيت على عقلي)) لأن هذا أمر فاجئه عليه الصلاة والسلام في الغار وأهاله والمملك غته وأرسله وغته وأرسله ، فالأمر كان شديداً على النبي عليه الصلاة والسلام .
 ((فثبته وقالت : " أبشر ، كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتعين على نوائب الدهر " ... في أوصاف آخر جميلة عددها من أخلاقه عليه)) ؛ ذكرت له أخلاقاً كثيرة . وهذا فيه أن صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وأن من كان معروفاً بالإحسان بالبذل بالسخاء بمعاونة الناس مساعدة المحتاجين لا يضيعه الله ((وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ)) ، فعُدَّت له أخلاقه ، أعماله ، برّه ، خصاله ، كرمه ، معاملاته الطيبة العظيمة وأخذت منها هذا الاستنتاج العظيم وهو قولها: " والله - تقسم بالله العظيم ﷻ على كلامها - لا يخزيك الله " لأنك معروف بهذه الصفات الفاضلة الكريمة ، تقول ذلك مطمئنة له ومهذبة من روعه صلوات الله وسلامه عليه .

((تصديقاً منها له وتثبيتاً وإعانة على الحق ، فهي أول صديق له رضي الله عنها وأكرمها)) فكان هذا من هذه المرأة الصالحة الرزينة العاقلة تثبتاً للنبي عليه الصلاة والسلام . وجاء أيضاً أنها أخذته إلى ورقة ابن نوفل ولعل هذا يأتي عند ابن كثير رحمه الله تعالى .

قال رحمه الله :

[ثم مكث رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يمكث لا يرى شيئاً ، وفتر عنه الوحي ، فاعتمَّ لذلك وذهب مراراً ليرتد من رؤوس الجبال ، وذلك من شوقه إلى ما رأى أول مرة ، من حلاوة ما شاهده من وحي الله إليه ، فقيل : إن فترة الوحي كانت قريباً من سنتين أو أكثر ، ثم تبدى له الملك بين السماء والأرض على كرسي وثبته وبشّره بأنه رسول الله حقاً ، فلما رآه رسول الله ﷺ فرق منه وذهب إلى خديجة فقال : زملوني . دثروني . فأنزل الله عليه " يا أيها المدثر (١) قم فأنذر (٢) وربك فكبر (٣) وثيابك فطهر (٤) " . فكانت الحال الأولى: حال نبوة وإحياء ، ثم أمره الله في هذه الآية أن ينذر قومه ويدعوهم إلى الله ، فشمر ﷻ عن ساق التكليف ، وقام في طاعة الله أتم قيام ، يدعوا إلى الله

الكبير والصغير ، الحر والعبد ، الرجال والنساء ، الأسود والأحمر ، فاستجاب له عباد الله من كل قبيلة [.

قال رحمه الله : ((ثم مكث رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يمكث لا يرى شيئاً ، وفتر عنه الوحي)) ؛ "مكث ما شاء أن يمكث " يعني بعد أن جاءه الملك في المرة الأولى وقرأ عليه "اقرأ" مكث فترة لم يأت . ومدة فترة الوحي : قيل أنها كانت قريباً من السنتين أو أكثر ، وقيل أقل من ذلك .

الشاهد: أنه فتر الوحي ؛ ففيل في الحكمة لذلك :

- أولاً : حتى يهدأ ويذهب عنه عليه الصلاة والسلام الروح الذي أصابه من رؤية الملك وضمه له .

- والأمر الثاني : حتى يحصل الاشتياق منه عليه الصلاة والسلام لسماع الوحي ؛ لأن الوحي له حلاوة وله لذة يجدها .

قال : ((فاغتم لذلك وذهب مراراً ليتردى من رؤوس الجبال)) أي يلقي نفسه من شواهد الجبال ؛ أي الجبال العالية . وهذا جاء في رواية رواها البخاري عن الزهري بلاغاً وليس متصلاً ، ومن المعلوم أن البلاغات من أقسام الضعيف ؛ فكونه جاء في صحيح البخاري بلاغاً لا يلزم منه أن يكون ثابتاً ؛ لكن لاشك أنه عليه الصلاة والسلام اشتد به الشوق والرغبة والحرص لسماع الوحي مرة ثانية ؛ لاسيما بعد أن ذهب عنه ﷺ الروح .

((وذلك من شوقه إلى ما رأى أول مرة ، من حلاوة ما شاهده من وحي الله إليه)) فالوحي له حلاوة وله طعم ؛ فلما فتر الوحي اشتاق عليه الصلاة والسلام شوقاً عظيماً .

قال ابن كثير : ((فقيل : إن فترة الوحي كانت قريباً من سنتين أو أكثر)) ؛ الذي جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن فترة الوحي كانت أياماً . قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : " وأما القول بأنها سنتان ونصف فلم يثبت بإسناد صحيح " أو نحو هذا الكلام . والأقرب أن المدة ليست طويلة ، يعني مكث أيام حتى ذهب عنه عليه الصلاة والسلام الروح ثم عاد الوحي .

قال : ((ثم تبدى له الملك بين السماء والأرض على كرسي ، وثبته وبشره بأنه رسول الله حقاً ، فلما رآه رسول الله ﷺ فرق منه)) أي خاف .

((وذهب إلى خديجة - أي ذهب إلى بيته صلوات الله وسلامه عليه - فقال : زملوني .
 دثروني . فأنزل الله عليه ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ (٣) وَثِيَابُكَ
 فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجُزَ فَاهْجُرْ ﴾ [المدثر: ١-٥])) فهو عليه الصلاة والسلام نبيٌ بإقرأ وأرسل
 بالمدثر ، لما نزلت عليه ﴿ اقْرَأْ ﴾ كان بذلك نبياً لأنه أوحى إليه صلوات الله وسلامه عليه ،
 ولما نزل ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ أمر بالندارة ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ [النساء: ١٦٥]
 فصار بذلك ﷺ رسولاً ؛ ولهذا قال ابن كثير رحمه الله :

((فكانت الحال الأولى حال نبوة وإيحاء)) ؛ الحال الأولى حيث نزل عليه ﴿ اقْرَأْ ﴾ فهذه
 حال نبوة وإيحاء . وأما الحال الثانية : عندما نزل عليه ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ فهذه حال رسالة
 وإبلاغ .

قال: ((ثم أمره الله في هذه الآية أن ينذر قومه ويدعوهم إلى الله ، فشمر ﷺ عن ساق
 التكليف ، وقام في طاعة الله أتم قيام ، يدعو إلى الله الكبير والصغير ، الحر والعبد ،
 الرجال والنساء ، الأسود والأحمر ، فاستجاب له عباد الله من كل قبيلة)) ؛ لما أمر عليه
 الصلاة والسلام بالبلاغ امثل أمر ربه ﷺ مع شدة الأمر وعظمه !! لأنه سيُجابه قومه فيما
 يصادم عقيدتهم التي تربوا عليها ورضعوها منذ الصغر وتوارثوها من الآباء والأجداد ، فالأمر
 عظيم . وتحمل عليه الصلاة والسلام أعباء الرسالة وهذه المسؤولية العظيمة وقام بها على
 التمام والكمال فبلغ البلاغ المبين وأدى رسالة الله ﷺ كما أمره الله ﷻ . وكان عليه الصلاة
 والسلام بذؤه بالدعوة بدءاً سريراً وليس معلناً ؛ استمر على ذلك ﷺ ثلاث سنوات يدعو
 الأفراد ويخاطب من يطمئن إليه سرّاً ، بدءاً بقرابته .

وكان أول من أسلم من النساء : خديجة رضي الله عنها - زوجته ﷺ - ، وأول من أسلم من
 الرجال : رفيقه وصاحبه صدّيق الأمة أبو بكر الصديق ﷺ ، وأول من أسلم من الصبيان :
 ابن عمه أبي طالب علي ﷺ ، وأول من أسلم من الموالى : زيد ابن حارثة ﷺ ، وأول من
 أسلم من العبيد : بلال ﷺ . وفي هذا : أنه خاطب بالدعوة الجميع ؛ خاطب الرجال
 والنساء الصغار والكبار الأحرار والعبيد ، فدين الله ﷻ لجميع الناس لا يختص بفئة دون فئة

أو سن دون سن ؛ بل هو دعوة لجميع الناس ، وهو عليه الصلاة والسلام بُعث رحمة للعالمين .

وكان أول الأمر مَنْ أسلم من الناس قلة ، والبقية بين متردد ومتخوِّف ومعاند ومعادي إلى غير ذلك من التفاوت في أحوال الناس . وقد أكرم الله ﷻ بعض الناس في ذلك الزمان بالسابقة للإسلام ، وهذه نعمة عظيمة ومنة كبرى ؛ وها هنا يذكر ابن كثير رحمه الله تعالى من سبقوا إلى الإسلام في أول دعوة النبي ﷺ وبدايتها .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على رسول الله .